فالشمس طالعةٌ من ذا وقد أفلت والشمسُ واجبة من ذا ولم تَجِبِ
لم تطلع الشمس منهم يومَ ذاك على بانٍ بأهل ولم تغرُبْ على عزب
ما ربعُ مَيَّةَ معموراً يَطيفُ به غَيْلانُ أبهىَ رُباً من رَبْعها الخَرب
ولا الخدودُ وقد أدْمِينَ من خَجَل أشْهَى إلى ناظرى من خدِّها التربِ

فإذا بلوحة الحريق على هذا النحو من التفاعل والتداخل وعدم التجانس تنعكس لدى الشاعر فى نفس الإطار ، وتعدد الجزئيات :

وجئتهَا بجيوش كالسُّيول على أمثالِها بين أجَام من القُضُب
وجالَت النار فى أركانها وعلَتْ فأطفأت ما بصدر الدين من كرب
أضحت أبا لهب تلك البروج وقد كانت بتعليقها (حمالة الحطب)
وتمت النعمة العُظْمَى وقد ملكت بفتح صُور بلا حصر ولا نصب
أُخْتان فى أن كلاً منهما جمعت صليبة الكفر لا أُخْتان فى النسب
لما رأت أختها بالأمس قد خربَتْ كان الخراب لها أعدى من الجرب

ولايخفى فى ختام اللوحة طرافة هذا التضمين الصريح الذى يقتبس فيه الشاعر بيتا لأبي تمام من نفس القصيدة موضوع المعارضة بما يعكس جوانب الصورة ويزيد أبعادها الحربية وضوحاً .

كما يعقد الشاعر هنا الآصرة بين يومه وبين أيام صلاح الدين ، إذ يجعل منه استكمالا لثأره :

أدركْتَ ثأرَ صلاح الدين إذ غضبت مِنْهُ لسرٍّ طواهُ الله فى اللُّقب

وبذا تظل الملامح الفاصلة بين الشاعرَيْن واردة خاصة حول حدود دائرة الفضيلة التى تُعَدُّ محورا مدحيا يلتف حوله الشعراء ، على لغة التكرار والتشابه ، أو الإضافة والابتكار ، كل حسب قدراته على المغالاة والمبالغة ، بما يكفى لإرضاء ممدوحه ، ومن الواضح أن أبا تمام كان شديد الجرأة مع المعتصم ، فلم يترك له من شجاعته المطلقة شيئا فى بعض من صوره ، وكأنما قصد إلى تعويض ذلك فى قوله :

لَوْ لم يقد حَجْفَلاً يومَ الوَغَى لغدا من نفسه وحدَها فى حَجْفَلٍ لَجِبِ